الجمال اللونی فی الشعر العربی من خلال التنوع الدلالی

لیلا قاسمی حاجی آبادی*

مهدی ممتحن**

الملخص

یتناول هذا البحث دراسة جمالیة التشکیل اللونی فی الشعر العربی؛ فالتشکیل اللونی وسیلة من وسائل وصف النفس الإنسانیة بشکل عام، ومظهر هام من مظاهر الواقعیة فی الصور الشعریة، وتتوضح فی الألوان جملة من البنی الأسطوریة، والحضاریة المؤسسة لثقافات الشعوب؛ فکانت ذات دلالات جمالیة جدیرة بالحث، والتنقیب؛ وبما أن لکل لغة من لغات العالم مجموعة من الألوان فأردنا أن نرصد فی هذه الدراسة جانب اللون فی الشعر العربی لنعرف مدی تأثر الجاهلیین بالألوان عن طریق معالجة الدلالات اللونیة فی أشعارهم.

ففی هذا البحث ألقینا الضوء علی أهمیة دور الألوان لتکون أداة أساسیة فی الکشف عن محاور الجمال الفنی فی النص الأدبی، فاللون من أهم وأجمل ظواهر الطبیعة، ومن أهم العناصر التی تشکل الصورة الأدبیة لما یشتمل علیه من شتی الدلالات الفنیة، الدینیة، النفسیة، الاجتماعیة، الرمزیة، والأسطوریة.

الکلمات الدلیلیة: الجمال، اللون، القرآن الکریم، الشعر، الدلالة الفنیة والاجتماعیة، البیئة، القیمة الفنیة.

*. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی گرمسار – أستاذة مساعدة.

**. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت – أستاذ مشارک.

Dr.momtahen@gmail.com

تاریخ الوصول: ١٣٩٠/٨/٤هـ. ش تاریخ القبول: ١٣٩٠/٩/١٠هـ. ش

المقدمة

هذه الدراسة ذات أهمية بالغة بما أننا لم نجد هناك دارساً انصرف إليها فى معالجة الألوان، فما وجدنا إلا شذرات متفرقة لدلالات اللون فى الشعر العربى عامة والشعر الجاهلى خاصة. فهذه الدراسة تتناول النصوص الأدبية فى العصر الجاهلى من حيث استعمال الألوان لتكشف عن قيمتها الفنية، وعن الرموز الجمالية التى وقف عليها الشعراء الجاهليون.

يقوم هذا البحث على أساس المنهج الوصفى، مقروناً بتحليل النصوص محاولاً الاستشهاد بآيات القرآن الكريم الدالة على اللون، ثم الاتيان بنماذج مختلفة من شعر الجاهليين للكشف عن القيم الجمالية للدلالات اللونية فى أشعارهم.

إن اللون موضوع معقد، وهو جزء من خبرات الإنسان الإدراكية والطبيعية للعالم المرئى، واللون لايؤثر فى قدرة الإنسان على التمييز فقط، بل إنه يغير المزاج والأحاسيس، وإن الألوان من أكثر الأشياء جمالاً وخصوبة فى حياة البشر؛ فيها أثرى الإنسان حياته، وأضفى عليها من بديع الجمال وبهائه ما لايحدّه واصف أو يحيط به خيال.

فالألوان ليست خطوطاً أو مسحات شكلية خالية من دلالات جمالية، وتعبيرية، ورمزية، وفى بعض الأحيان تزئينية؛ بل هى صور تعبر عن موضوعات الحياة، وانفعالات الفنان بها، والتدقيق فى الآثار الأدبية يرشدنا إلى أن استخدام اللون فى هذه الآثار ليس صدفة، وليس لتنميق الكلام فحسب بل له ارتباط وثيق بجميع المستويات البنيوية، والبلاغية، والتعبيرية للنص الأدبى.

ولا بد لنا من الإشارة بأن النظر إلى دلالة الألوان بكونها متغيرة بتغير المؤثرات النفسية والمقاييس الذوقية يدلّنا على عدم ثبات كثير من الأحكام الصادرة عن دلالتها لأن بعض الدلالات تتغير بتغير الظروف، والأزمان، وتأثير اللون قد يتغير بتغير الحالة النفسية للشخص الواحد.

العوامل المؤثرة على اختيار الألوان

لا شک أن اللون من أهم الظواهر والعناصر التى تشكل الصورة الأدبية لأن له ارتباطاً وثيقاً بجميع مجالات الحياة وظواهر الكون، وله علاقة وطيدة بالعلوم الطبيعية، وعلم النفس، والدين، والثقافة، والأدب، والفن، والأسطورة.

كل إنسان يفضل بعض الألوان ويحبه، ولايحب البعض الآخر، وقد يرفض بعض الألوان بالطبع. اختيار الألوان، ورفضها، وقبولها يعود إلى أسباب متنوعة فيزيولوجية، ونفسية، واجتماعية، ودينية، ورمزية، وذوقية. ولكل لون معنى نفسياً يتكون نتيجة لتأثيره الفيزيولوجى على الإنسان. يقال: إن الوقت يمضى بسرعة تحت أشعة خضراء، ويمضى ببطء تحت أشعة حمراء. فاللون الأخضر هادئ، وأما اللون الأحمر فمشهور بأنه مثير ومهيج ومقلق، ويؤدى إلى الشعور بالملل. فيمكن القول بأن الحالات النفسية والعاطفية قد تسبب عن آثار الألوان على الإنسان.

هكذا العوامل الاجتماعية كالآداب، والسنن، والتقاليد، والعادات لها أثرها فى اختيار وتفضيل اللون. فليس السواد لون الحداد والحزن عند كل الشعوب، كما أن البياض ليس لون الفرح والسرور عند الجميع.والبيئة الجغرافية، والإقليمية أيضاً لها أثر يذكر فى اختيار اللون، لأن كل شعب يمكن أن يحب لوناً ويستثمره وفقاً لظروفة البيئية والجغرافية. فمثلاً يعشق الجاهلى اللون الأخضر لأنه يبحث عن الخصوبة، والعشب، والشجر، فى الجزيرة ولايحب اللون الأحمر حينما يرتبط بالحرب، والقحط، والحرارة، والجفاف، والظمأ.

إذن تختلف وظائف أى لون باختلاف الحضارات والمجموعات البشرية. فنرى الوظيفة الرمزية للون فى الرسم الدينى البيزنطى فى القرون الوسطى. فالأزرق اللون الغالب على رداء العذراء الخارجى يرمز إلى النقاء، والصفاء، ولون ردائها يدلّ على دعة اللون، ويلمح الأحمر إلى العاطفة البشرية والانهماک الدنيوى، ويمثل الأخضر حالة الخصب، وحالة الأمومة. فالألوان بالإضافة إلى كونها مظهراً من مظاهر الواقعية تكون حاملة إرث ثقافى حيث تتوضح فى الألوان جملة من البنى الأسطورية الحضارية المؤسسة لثقافات الشعوب فلها دلالات جمالية. فالعوامل العرقية والبيئية لها أثر فى

تحديد مسارات الألوان الثقافية.

فاخترنا فى هذا المقال أن ندرس الجمال اللونى فى الشعر بما أن الشعر هو الذى يشهد على أثر خالقه، وصوره الزمنية، والمكانية؛ فالشاعر لم يقدر على أن يبتعد عن مجتمعه، وبيئته الاجتماعية، والطبيعية؛ وهو جزء منها لأنه عاش معها.فالشعر صورة فنية موازية لحياة أصحابه وبيئتهم، وهى تختزن فى عباراتها أفكارهم، وعاداتهم، وأنسابهم، ومشاعرهم فى كل زمان.

فالشعر الجاهلى هو الذى يحكى عن بيئة الشاعر وقبيلته لأن الأرض التى يعيش فيها هو موطنه والأحداث التى تجرى فيها هى خواطر وذكريات مشاعره، ولهذا نحن عندما نسمع كلمات الشاعر التى تغنى بالبيئة نحس كل شئ عن طبيعته، ومجتمعه، ونشهد التجربة التى مر بها الشاعر ونقلها إلينا فيصوره واقعا فنيا وفكرياً بأى شكل كان. (ممتحن، ١٣٨٨ش: ٢٠٢)

ومن الشعراء من يتأثر بهذه الطبيعة، ويستلهم بها أكثر من غيره، فيتجلى فى صوره الشعرية أهم ميزات الطبيعة، منها اللون؛ فاللون من العوامل التى تلعب دوراً أساسياً فى خلق صورة جميلة. (شوندى، ١٣٨٨ش: ١٣٨)

أما أهم دلالات الألوان فى أشعار الجاهليين فهو:

اللون الأبيض

من وجهة نظر سايكولوجية واجتماعية، هذا اللون لون الطهارة والخلوص والصفاء والنقاء والمحبة والخير والحق والعدالة. والكلمة البيضاء أطلقت على الحسنة يقال: «كلمته فما ردّ على سوداء ولا بيضاء.» أى كلمة قبيحة ولا حسنة، ويقال للئيم أسود الوجه، وللكريم خلاف ذلک ويقال: «ادّخر درهمک الأبيض ليومک الأسود.» فالأبيض عند اليونانيين دليل الفرح والسرور وهوررمز للطهارة والشرف فى معظم التقاليد لدى الشعوب وهو لون النقاوة والسلام. (إبراهيم محمود خليل، ٢٠٠٧م: ١٠٨)

كما أن بعض الآيات توضح لنا أنّ الطهارة والنقاء والإيمان والصفاء تتجسم بيضاء فى القيامة فتصبح وجوه الصالحين والطاهرين بيضاء لامعة: ﴿وأما الذين ابيضّت وجوههم

ففی رحمة الله هم فیها خالدون﴾ (آل عمران: ۱۰۷)

فی هذه الآیة (ابیضت وجوههم) کنایة عن (صلحت أعمالهم وطهرت أرواحهم) کما أن فی الآیة الشریفة: ﴿وادخل یدک فی جیبک تخرُج بیضاءَ من غیرِ سوءٍ﴾ (النمل: ۱۲) استخدام هذا اللون دلالة واضحة وبیان لرسالة موسی (ع) لما أعطاه الله من القدرة لإثبات نبوته.

أما فی الشعر العربی فیعدّ هذا اللون من الألوان التی کثر حضوره، ویقترن کثیراً ما بجمال المرأة وجلال الرجل ورهافة السیوف والدروع فی الشعر الجاهلی، وتدور فی سیاق الشرف والرفعة وکل معانی الخیر؛ فإذا قالت العرب فلان أبیض، فالمعنی نقاء العرض من الدنس والعیوب ومن ذلک قول زهیر یمدح رجلاً:

أشــمُ أبیــضُ فیــاضُ یفــکک عن أیدی العنــاةِ وعــن أعناقِهــا الرّبقا

وهذا کثیر فی شعرهم لایریدون به بیاض اللون، ولکنهم یریدون المدح بالکرم.

ولبید یمدح قومه بلعب القمار:

وبیضٌ علــی النیران فی کل شــتوةٍ ســراة العشــاء یزجــرون المســابلا

فهو یری أن من کمال الفتوة والکرم أن یقامر المرء. (دیوان: ۲۴۹)

کما جاء الأبیض فی شعر طرفة بهذا المعنی:

أما الملوک فأنت الیوم الأمهمو لؤمــاً وأبیضُهــم ســربالَ طباخ

تحییهــم بیــضُ الولائــدِ بینهم وأکسیة الإضریج فوقَ المشاجب

یصونون أجســاداً قدیماً نعیمُها بخالصةِ الأردانِ خضرُ المناکب

(شیخو، ۲۰۰۵م: ۲۰۹)

وهذا مایفهم من قول عمرو بن کلثوم فی وصف نساء قومه بالعفة والشرف والکرامة:

علــی آثارنا بیضٌ حســانٌ نحــاذرُ أن تقســمَ أو تهونا

(الزوزنی، ۱۹۹۷م: ۱۳۲)

فتغزل الشعراء الجاهلیون بالمرأة البیضاء، وهم لایریدون البیاض الخالص وإنما

البياض المشوب بصفرة كما نجد هذا المعنى عند امرئ القيس حينما يقول:

مهفهفــةٌ بيضاءُ غيــرُ مفاضة ترائبها مصقولةٌ كالســجنجل

كبكرِ المقانــاةِ البياضِ بصفرةٍ غذاها نميرُ المــاء غير محلّل

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ٣٤)

فنرى هماً جمالياً كبيراً عند امرئ القيس إلى امتلاك المرأة البيضاء. ولكن لماذا المرأة البيضاء تحديدا؟ حينما ندقق نجد تفسيراً آخر لهذا الأمر، فالمجتمع الجاهلى ولاسيما فى عصر امرئ القيس كان شديد الافتقار إلى النساء البيض، وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكننا تفسير إصرار كثير من شعراء الجاهلية على جمالية البشرة البيضاء، واتخاذه من أهم المعايير الجمالية للمرأة. بل من المفيد أن نتذكر الخاصية الجمالية للون الأبيض فى الثقافة العربية قديماً وحديثاً فكما قلنا سابقاً اللون الأبيض بات رمز النقاء والصفاء ورمز الطهر والسلام ورمز الجمال بشكل عام.

ومن أشعار طرفة فى الغزل:

ندامــاى بيضٌ كالنجــوم وقينة تــروح إلينا بين بردٍ ومجســدٍ

رحيب قطاب الجيبِ منها رقيقة بجــسِ الندامى بضــة المتجرد

(الزوزنى، ١٩٩٧م: ٥٨)

يشير إلى أنهم أحرار ولدتهم حرائر، أو وصفهم بالبياض لإشراق ألوانهم فى الأندية والمقامات إذ لم يلحقهم عار يعيرون به أو وصفهم بالبياض لنقائهم من العيوب.

ومنه:

كبنــات المخرِ يمــأدن إذا أنبت الصيف عساليج الخضر

(شيخو، ٢٠٠٥م: ٦٩)

وعسلوج ساق نبات أبيض. فطرفة شبه النسوة بالسحائب وخصّ بنات المخر لأنها أشدّ بياضاً.

كما استعمل الشاعر الجاهلى لون البياض فى وصف أعضاء المرأة فيقول امرؤالقيس فى وصف ساق حبيبه بالبردى الناصع البياض:

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مخصّر وساقٍ كأنبوبِ السقی المذلل

(الزوزنی، ۱۹۹۷م: ۲۳)

كما أن عمرو بن كلثوم يعدّ ذراعی حبيبه الممتلئتين بيضاء وثدياً مثل حق العاج أبيض وساقين كأسطوانتين من عاج أو رخام أبيض فيهما الخلاخيل:

ذراعَـی عيطل أدمـاءَ بكر هجانَ اللونِ لَـم تقرأ جنينا

وثدياً مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكفِّ اللامسـينا

وسـاريتی بِلنـطٍ أو رخـامٍ يرنُّ خشـاش حليهما رنينا

(الزوزنی، ۱۹۹۷م: ۱۲۱)

والأدماء: البيضاء والهجان الأبيض الخالص البياض فيقول عمرو بن كلثوم بأن تلك المرأة تريک ثدياً أبيض مثل العاج كما أن ساقيها أبيض.

فكما يبدو من أشعارهم أنهم تفاءلوا باللون الأبيض وعدّوه رمزاً للسلام والنقاء والبشارة، وهذا ما دفع بعضهم إلى تعميم القول فرأى أن الشاعر تفاءل بلون الناقة الأبيض فی قوله:

كتب البياض لها وبورک لونُها فعيونُها حتی الحواجبُ سود

ويقول امرؤالقيس فی وصف ناقته:

بأدمـاءَ حرجـوجٍ كأنّ قتودَها علی أبلق الكشحين ليس بمُغرب

(شيخو، ۱۹۹۷م: ۴۰)

وكما أشرنا سابقا الأدماء صفة للناقة البيضاء والمغرب الأبيض الوجه والأشفار.

ويفهم من الأبيات أن الشاعر يريد وصف لونها بالبياض وأنها بسبب هذا اللون كانت ميمونة ونری أن الدلالة اللونية مختلفة، والشاعر حقا متفائل باللون الأبيض، ولكنه فيما يبدو لم يرد وصف الناقة بالبياض بل يتفاءل بهذا اللون.

كما أن العرب الجاهلی وصف الثور بلونه الأبيض فيقول امرؤالقيس:

فعادی عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ وبين شبوبٍ كالقضيمةِ قرهَب

(شيخو، ۱۹۹۷م: ۴۲)

والقضيمة الصحيفة البيضاء شبه بها الثور لبياضه.فامرؤالقيس يصف لون البقرة بأنه أبيض ناصع.كما يصف الجاهليون الظبى الأبيض فيقول امرؤالقيس:

ولا مثلَ يوم فى قُذاران ظلتُه كأنى وأصحابى على قَرن أعفرا

(شيخو، ١٩٩٧م: ٥٠)

والأعفر الظبى الأبيض فى بياضه حمرة.

اللون الأسود

يستخدم هذا اللون للظلام، والصمت، واليأس، والخيبة، والفناء، ورمز الحزن، والهم، والموت، والإخفاق، واللون الذى يمثل الظلم، والضلالة، والغضب، والإثم، والكفر.

ورد اللون الأسود سبع مرات فى القرآن الكريم بعضها تمثل الكفر والارتداد والعصيان والتكذيب. فسواد الوجه يرمز إلى سواد الروح وتلوثها تمثل وتجسّم فى وجوههم:

﴿وترى الذين كذَّبوا على الله وجوههم مسودّةٌ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين﴾ (زمر: ٦٠)

﴿يومَ تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأمّا الذينَ اسودَّت وجوهُهُم أكفرتُم بعد إيمانِكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون﴾ (آل عمران: ١٠٦)

وقد يكنّى به عن شدة الغضب وحدة الغيظ: ﴿وإذا بشّر أحدُهُم بالأنثى ظلّ وجُهُه مسوداً وهو كظيمٌ﴾ (نحل: ٥٨)

وقد وظف هذا اللون للدلالة على آثار قدرة الله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود﴾ (فاطر: ٢٧)

فلون الأسود هو لون الحزن والحداد، كما يدلّ على الفرح أيضاً كما أن اللون الأبيض هو لون الحداد فى الأندلس، وهو لون الحداد أيضاً عند المغاربة ومن هذا التضاد الظاهرى قد تلمس تعليلاً يحل إشكالية ذلک أن من يرتدى الأسود حداداً فهو يظهر حزنه على الميت المفقود، ومن يلبس الأبيض حداداً فإنّما يتفاءل له بأن يقابل ربه

بأعمال طيبة أو ينال رضا الله ومغفرته. (المرهون الصفار، ۲۰۱۰م: ۲۶۵)

فاللون الأسود رمز خيبة الأمل فی المجتمع الجاهلی فقد نعت العرب الجاهلی كل شیء بغضته نفوسهم بلون الأسود فعبّروا عن الحقد بأنه أسود، ووصفوا الأكباد الحاقدة بالسوداء. قال الجاحظ: «يقولون سود الأكباد، يريدون العداوة.» (الجاحظ، ج۳، لاتا: ۲۶۷)

يقول الأعشی:

فما أجشـمت فی إتيانِ قومٍ هم الأعـداءُ والأكبادُ سـودٌ

فوصف أكبادهم بالسوداء، ليدلّ علىٰ شدة عدائهم وبغضائهم، ويقول البعض بأن سبب وصف الأكباد بالسواد هو اعتقادهم أن الحقد أحرق أكبادهم حتی اسودّت.فنجد بأن السواد يرتبط فی بعض الأحيان بقبح المرأة والرجل، ولاسيما فی نطاق الطبقة الفقيرة وله صلة بروعة القدور فی أيام القحط. فيقول عامر بن الطفيل:

وأنت لسوداءُ المعاصمِ جعدة وأقعسُ من نسل الإماء العوارک

فهو يحطّ من شأن أحد مهجويه فی هذا البيت، ويعيره بأنه السوداء ويقول عروة بن الورد:

أبی الخفض من يغشاک من ذی قرابة ومن كل سـوداء المعاصـم تعترى

(شيخو، ۱۹۹۷م: ۲۲)

وسوداء المعاصم امرأة فقيرة اشتدّ بها الجوع والهزال والبرد، فاصطلت بالنار حتی اسودّ معصماها.

ويأتی الليل واقترانه بالظلمة رمزاً وتكثيفاً للون السواد ودلالاته. نجد هذا فی شعر عنترة بن شداد حين اختار الليل بما يجد من تكثيف السواد وظلمة الأمل فی نفسه ليكون زمناً لرحلة الحبيبة وفراقها له وإلا فالليل قد يكون مقمراً وجميلاً ومرتبطاً بالراحة والمتعة إلا أن عنترة اختاره وقرنه بالظلمة ليدل علی شعوره باليأس من خلال تعبير ليل مظلم:

إن كنــتِ أزمعتِ الفــراق فإنما زمّــت ركائبكــم بليــلٍ مظلــم

(الزوزنی، ۲۰۰۵م: ۱۳۸)

وحينما نراجع إلى حياة امرئ القيس نجده كان فی أزمة دائمة وكرب مستمر كان كذلک فی حياة أبيه وظلّ كذلک بعد مصرعه أيضاً ونحسب أن ذاک الكرب الشامل قد تجسد بدقة ووضوح فی الظلام الشامل أبياته. إنه ظلام وليس مجرد ليل، والشاعر توّاق إلى انقشاع الظلمة ومتلهف إلى انجلاء الغمة. إنه يبحث عن الفرح، عن الخلاص، عن السلام وعن الضياء، وكانت المرأة بوجهها المشرق الأبيض أبهى تجسيد لذاک الضياء:

وليــلٍ كموجِ البحــرِ أرخى ســدولَهُ علــى بأنــواعِ الهمــومِ لِيتبلــى

ألا أيهــا الليــلُ الطويــلُ ألا انجلــى بصبــحٍ وما الإصبــاحُ منــکَ بأمثلِ

(الزوزنی، ۲۰۰۵م: ۲۶ و۲۷)

نجد بأنه قد أعطى إلى الليل لوناً أسود، ويرمز به شدة همومه وأحزانه. ولما كان الليل زمن المغادرة معادياً للشاعر فقد أعطاه الشاعر تركيزاً لونياً أكثر بواسطة مظلم، ففيه تكثيف وتعبير عن قوة الإحساس بفقد الحبيبة حيث لا شیء جميل أو مريح يحيط الشاعر بعد رحيلها.

ودلالة اللون الأسود على خيبة الأمل والخوف يجعلنا نقف عند رأی عبدالقاهر الجرجانی فی تعليقه على بيت النابغة الذبيانی:

فإنــک كالليــلِ الذی هــو مُدركی وإن خلتُ أنّ المُنتَأی عنک واسعٌ

(شيخو، ۱۹۹۷م: ۲۱۲)

بأن اللون ليس مقصوداً لذاته فی كلمة الليل التی شبه بها النابغة النعمان بن المنذر، بل قصد وصف قدرة النعمان على الوصول إلى كل مكان، واختار الليل لأنه يغشى فی نفسه التخوف منه ولم يشبهه بالنهار.

فحينما نتفحص أشعار الجاهليين نری بأن هذا اللون كثيراً ما استخدم رمزاً لجمال المرأة فيصف امرؤالقيس شعر حبيبته بالسواد:

وفرعٍ یزینُ المتنَ أسـود فاحمٍ أثیثٍ کقنـو النخلـة المتعثکلِ

(الزوزنی، ۲۰۰۵م: ۲۷)

والشاعر الجاهلی یعتبر أجمل الشفة أیضاً الشفة السوداء، کما نجد هذا المعنی عند طرفة حینما یقول:

وفی الحی أحوی ینفضُ المردَشادنٌ مظاهـرُ سِـمطَی لؤلـؤٍ وزبرجد

وتبسـمُ عـن ألمـی کأنّ منوراً تخلَّلَ حـرَّ الرملِ دعصٍ له ندی

(الزوزنی، ۲۰۰۵م: ۴۶)

اللون الأحمر

اللون الأحمر لون القوة والقدرة والحیاة والحرکة، وأما عاطفیاً فیعتبر اللون الأحمر لون الحب الملتهب والتفاؤل والقوة والشباب.

أکثر الشعراء القدماء من استخدامهم هذا اللون نتیجة وعیهم الجمالی، ولدوره فی أصل الوجود والواقع لذلک تنوعت الألفاظ التی کثرت لتعبر عن ماهیته وقیمته ومدی نقائه ودرجة تشعبه من ذلک قولهم أحمر، أحمر قانی واضریج، جریال، عندم، اسفع، کمیت و... کما یمثل هذا اللون: الشر والکفر والقتل والدم کما یعبر عن الفرح والسرور ویستخدم فی الأعیاد.

لم یرد اللون الأحمر فی القرآن الکریم بلفظ صریح إلا مرة واحدة مزروعة بین اللونین الأبیض والأسود: ﴿ومن الجبال جددٌ بیضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها﴾ (فاطر: ۲۷) فالحمر فی الآیة الشریفة یبین تلون الطبیعة وتنوعها لیدلّ علی المنة الإلهیة ودعوة الناس إلی التفکیر.

فهذا اللون استخدم بغیر لفظة فی آیة: «فکانت وردة کالدهان» فوظف "الوردة" فی هذه الصورة الفنیة لتدل علی لون السماء حین تنفرج أبوابها لنزول الملائکة فشبه السماء یوم القیامة فی اختلاف ألوانها بالورد.

التصویر تدل علی شدة العذاب تهویلاً وتخویفاً للعصاة والمذنبین لأن الحمرة تمثل وتجسم لهیب النار.

أما الشاعر الجاهلي فيتفهم الخصائص الجمالية للألوان تفهماً دقيقاً ويحسن استثمارها في الصور الشعرية. إن اللون الأحمر يظهر على الغالب في الموضوعات ذات الصلة بالشراسة، والعنف، والمفارقات الصارخة. فعنترة يعاجل زوج إحدى الغانيات بضربة ما تطاير منه دم كلون العندم في حمرته:

سـبقت يداي له بعاجلِ طعنة ورشـاش نافذة كلـونِ العندمِ

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ٨٩)

ويورد بنو تغلب قوم عمرو بن كلثوم الرايات بيضاً ويصدرونهنّ حمراً:

فإنـا نوردُ الرايـاتِ بيضاً ونصدرهنّ حمراً قدروينا

ويشير مهلهل إلى هذا المضمون أيضاً:

نرمي الرماح بأيدينا فنوردها بيضـاً ونصدرها حمراً أعاليها

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٧٤)

فيخرج من المعركة مع قومه ورماحهم يقطرن بالدم.ويقول امرؤالقيس في وصف بنان الحبيب:

بمخضـبٍ رخـصٍ كأنّ بنانـه عنـمٌ علـى أغصانـه لـم يعقد

ويقول في مكان آخر:

كأنّ ثيابَنـا منّـا ومنهـم خُضبن بأرجـوانٍ أو طُلينا

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ١٢٦)

ويقول زهير في وصف لونِ أنماط الحبيب:

علـون بأنماطٍ عتـاقٍ وكلّةٍ ورادٍ حواشـيها مشاكهةِ الدمِ

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ٧٦)

كما أن الجاهلي كثيراً ما وصف فرسه بلونه الأحمر فيقول امرؤالقيس:

كميتٍ يزلّ اللبد عن حالِ متنه كما زلّت الصفـواءُ بالمتنزّلِ

(الزوزني، ٢٠٠٥م: ٣١)

ويقول طرفة في مكان آخر:

أیهــا الفتیانُ فی مجلِســنا جــرّدوا منها ورادا وشُــقُر

(شیخو، ۱۹۹۷م: ۷۲)

والورد الفرس بلون الورد.

فالأحمر إذاً موضع تقاطع حاد بین الحب والحرب، وهما موضوعان کثیران یناسبهم عنصر الإثارة الکامن فی اللون الأحمر، وقد لاحظ ول دیورانت الظاهرة ذاتها فی تلافیف الثقافات الأخری وانتهی إلی أن اللون الأحمر أعزّ الألوان فی لعبة الحب والحرب. (أحمد محمود خلیل، ۱۹۹۶م: ۲۰۲)

اللون الأخضر

هذا اللون هو لون الحیاة الحرکة والسرور، لأنه یهدئ النفس ویسرها وهو تعبیر عن الحیاة والخصب والنماء والأمل والسلام والتفاؤل، وهو لون الطبیعة الحیة. فیعتبر هذا اللون فی الفکر الدینی رمزاً للخیر والإیمان، وأنه أکثر شیوعاً فی الروایات العربیة الإسلامیة فیضفی هذا اللون بعض السکینة علی النفس ویساعد الإنسان علی الصبر.

قد وردت لفظة الأخضر ثمانی مرّات فی القرآن الکریم فاستخدمت لبیان ماهیة وجمال ثیاب ومجلس أهل الجنة. ﴿ویلبسون ثیاباً خضراً من سندس واستبرق﴾ (الکهف: ۳۱)

کما أنها اقترنت بالنبات دلالة علی جمال الکون وحیویته کمظهر من مظاهر القدرة والرحمة الإلهیة المطلقة. القدرة التی تجعل الشجر الأخضر حطباً یحترق ومولداً للطاقة لیستثمره الإنسان فی حیاته. ﴿الذی جعل لکم من الشجر الأخضر ناراً فإذا منه توقدون﴾ (یس: ۲۸)

القدرة التی تخرج من التراب نباتاً أخضر: ﴿وأخرجنا به نبات کل شیء فأخرجنا منه خضراً﴾ (الأنعام: ۶۹)

أما فی الأدب العربی فنری بأن العرب أکثر من وصف الحیوانات والنباتات باللون الأخضر، ولم یکن أحب إلیهم من اللون الأخضر خاصة فی الصحراء المجدبة، وبقی هذا

اللون أحبّ الألوان إليهم حتى بعد تغير بيئاتهم وانتشارهم فى بيئات جديدة. إنه ربط بين الأخضر وبين نزول الماء من السماء واكتساء الأرض بالخضرة والنبات الذى فيه رزق للإنسان ومواشيه ومن ثم انبعاث الخير من هذه الخضرة وخيرات الأرض.

ولع العرب بلباس اللون الأخضر واستخدموه فى رياشهم. قال النابغة الذبيانى:

يصونون أجســاداً قديماً نعيمها　　بخالصــة الأردان خضر المناكب

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٠٩)

فالأخضر فى الشعر الجاهلى حيناً يظهر فى تصوير الرياض والخمائل أو الملابس وحيناً آخر فى وصف العيش كما يقول النابغة:

ولقــد أراه بغبطــة　　فى العيش مخضــراً جنابُه

فخوى وما من ذى شــبابٍ　　دائــمٍ أبــداً شــبابُه

(شيخو، ١٩٩٧م: ٢٢٤)

اللون الأزرق

يعتبر هذا اللون لون السكينة والهدوء والصداقة والتفكير ؛اللون الذى يخفّف من حدّة ثورة الغضب ويهدئ النفس لأنه يرتبط بالماء والسماء ويرمز إلى الصدق والخلود والإخلاص. قيل إن الأزرق الغامق يدلّ على التمييز والشعور بالمسؤولية والإيمان، واللون الأزرق الفاتح يعكس النقة والبراءة والشباب. فهذا اللون من الألوان المقدسة عند اليهود كما أن اللون الأخضر يعدّ من الألوان المقدسة عند المسلمين.

مع هذا يدلّ اللون الأزرق على الحزن والكآبة أيضاً، كما أنه ورد فى القرآن الكريم بهذا المعنى (لم يرد إلا مرة واحدة): ﴿يومَ ينفخُ فى الصّورِ ونَحشُرُ المجرمينَ يومئذٍ زُرقاً﴾ (طه: ١٠١)

يقول صاحب مجمع البيان بأنه يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً يحشرون زرق العيون، ومعنى الزرقة الخضرة فى سواد العيون كعين السنّور، والمعنى فى هذا تشويه الخلق. وقيل زرقاً عمياً ترى زرقاً وهى عمى وقيل عطاشاً فى مظهر عيونهم كالزرقة. (طبرسى، ١٣٨٤ش: ٨٣)

والعرب كان يطلق لون الزرقة على الأعاجم كما يصف الأعشى النبيط بالزرق:

ويروى النبيط الزرق من حجراتِهِ ديــاراً تــروى بالأتــى المعمّــد

وقال فی قصيدة أخرى يصف ساقی الخمر بأنه أزيرق دلالة على أنه أعجمی:

تنخلهــا من بــكار القطاف أزيــرق آمــن إكســادها

وسبب ذلک يرجع إلى أنهم يصفون عيون الأغرباء بالزرقة.

كما أننا نجد فی الشعر الجاهلی بأن هذا اللون تارة يوحی بالعنف والقسوة فی مجال الصراع حيث النصال والأسنة بزرقتها المخيفة، وتارة أخرى يوحی بالطمأنينة والسكينة فی وصف المياه الصافية الساجية. كما يقول زهير بن أبی سلمی:

فلما وردنَ الماءَ زُرقاً جمامُهُ وضعنَ عصی الحاضرِ المتخيمِ

(الزوزنی، ۲۰۰۵م: ۷۶)

وماء أزرق ماء صافٍ، والزرق المياه الصافية، وإطلاق الزرقة على الماء لما هو معروف من إنعكاس الألوان على المياه إذا كانت محاطة بالأشجار أو كانت السماء صافية أو ملبدة بالغيوم، كل ذلک يعكس لونه على الماء فيبدو كأنه ميال إلى الزرقة لشدة تكاثفه. (مرهون الصفار، ۲۰۱۰م: ۳۴۲)

اللون الأصفر

ولهذا اللون علاقة بالموت والاضمحلال تارة، وبالبهجة ومجالس الخمر وجمال المرأة تارة أخرى. فيعتبر هذا اللون من أشد الألوان فرحاً وأكثر الألوان إضاءة لأنه منير للغاية بما أنه لون الشمس ومصدر الضوء ويمثل قمة التوهج والإشراق والنشاط والسرور. فاستخدمه المصريون القدماء رمزاً لإلهة الشمس وللوقاية من المرض. واللون الأصفر هو اللون الملكی، وكان شعار بوذا ورجال الدين، وهو شعار الربيع عند قدماء الألمان، وهو لون مقدس فی الصين والهند وعند أوربا المسيحية.

كما أن للون الأصفر دلالة أخرى تناقض الأولى وهی دلالته على الحزن والهم والذبول والكسل والموت والفناء، ربما الدلالة هذه ترتبط بالخريف وموت الطبيعة

والصحارى الجافة وصفرة وجوه المرضى. وورد هذا اللون فى القرآن الكريم خمس مرات منها: ﴿قال إنّه يقول إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها تسرُّ الناظرين﴾ (البقرة: ۶۹)

قال الطبرسى: وجملة «تسرّ الناظرين» يبين دلالة هذا اللون المبهجة فى الطبيعة فتسر الناظرين أى تعجبهم وتفرحهم بحسنها، وروى عن الصادق (ع) أنه قال: من لبس نعلاً صفراء لم يزل مسروراً حتى يبليها.

فوصف هذه البقرة باللون الأصفر تحديد لماهية لونها والدلالة على جمال هذا اللون وتأثيره النفسى على الإنسان.

فى الآيات الأربعة الباقية المذكور فيها هذا اللون، لانجد دلالة إلا ما يدل على المرض والموت والفناء: ﴿اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو وزينةٌ وتفاخرٌ بينَكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾ (حديد: ۲۰)

إذن فى الآية صورة تمثيلية لنهاية الحياة وفناء لذائذها. شبهت ملاهى الحياة ولذائذها باخضرار الأرض وخصوبتها بعد نزول أمطار غزيرة فلم تلبث الأرض أن تجف وتصير قاحلة ويتحطّم زرعها اليابس. فالاصفرار فى هذه الآية يدل على ذبول الموت والاضمحلال فى كل الصورة ويقصد هداية الناس وتوجيههم نحو السعادة.

كما رأينا للون الأصفر دلالات متعددة لارتباطه بتداعيات مختلفة: قد يوحى بالخير والتفاؤل حين تذكر الشمس والذهب وبعض الثمار وقد ترتبط الصفرة بالمرض والنبات الذابل وغير ذلک مما ذكرنا.

وقد اختلفوا فى تبيان تأثير اللون الأصفر على النفوس، فقد عدّه البعض لوناً بارداً وهذا يعنى أنه يوحى بالبرودة، وعدّه آخرون لوناً دافئا يذكر بالشمس فلهذا اللون ليس دلالة واحدة ولا إيحاءات ثابتة أما فى الشعر الجاهلى فقد وردت بكثرة الصفرة. ووردت الصفرة المشوبة بالحمرة سمة جمالية عند العرب فى الجاهلية والعرب تدعى لنسائها الصفرة. يقول الأعشى:

تلک خیلی فیها وتلک رکابی　　هنّ صفراًأولادهاکرةکالزبیب

وشبه علقمة المرأة بالزعفران:

یحملنَ أترجّةً نضخُ العبیر بها　　کأنّ تطیابها فی الأنفِ مشموم

(شیخو، ۱۹۹۷م: ۱۷۵)

أراد المرأة المطلیة بالزعفران حتی اصفر لونها وطابت رائحتها فاشبهت تلک الیمونة.

ووصف الأعشی فی شعره القینة التی تعزف لهم بأنها تلبس ثوباً خفیفاً معطراً بالمسک ملطخاً بالزعفران:

وقد أقطع الیوم الطویل بفتیةٍ　　مســامیح تسقی والخباء مروق

وراعة بالمسک صفراء عندنا　　بجسِّ الندامی فی ید الورع مفتق

(شیخو، ۱۹۹۷م: ۲۴۲)

ووصف الخیول بأنها صفراء اللون:

تلک خیلی منه وتلک رکابی　　هنّ صفــر أولادها کالزبیبِ

النتیجة

استخدام الألوان فی أشعار الجاهلیین لیس صدفة بل له ارتباط وثیق ببیئته ونفسیته ولکل لون طابعه الجمالی الذی یستمدّ من البنائیة التی ینتمی إلیها. والألوان الرئیسة علی اللوحات الجمالیة فی الشعر الجاهلی هی: الأبیض، والأسود، والأحمر، والأصفر، والأزرق.

فالشاعر الجاهلی کثیراً ما استخدم اللون الأبیض فی أشعاره ویعدّه رمزاً للجمال کما أنّه یعشق اللون الأخضر لأنه یعیش فی قفار مجدبة ویبحث دائماً عن العشب والکلأ. ویکره العرب الجاهلی اللون الأسود ووصف کل شیء مکروه عنده بهذا اللون، ویدل الأسود علی الخوف والحزن والخیبة عند العرب الجاهلی، والأحمر عند الجاهلیین لون الحب والحرب فاستخدموا هذا اللون لوصف بنان الحبیب وأنامله کما نجد هذا اللون فی

وصف الفرس عند الجاهليين. كما أن الجاهلي يعشق الأخضر بما أنّه يعيش في القفار ودائماً يطوى الصحراء في طلب الكلأ والعشب.

فحينما ندقق في استخدام هذه الألوان في الشعر العربي نجد بأن هذه الألوان قد تتكرر لدى الشعراء ومرد ذلك إلى البيئة المحدودة التي تتكرر فيها المشاهد وتتشابه فيها الصور وهذه الصور وإن كانت متشابهة في إطارها العام لكن لكل صورة معالجة معينة وتفصيلات خاصة بها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الجبوري، يحيى. ٢٠٠١ م. *الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه*. بيروت: موسسة الرسالة.

الزوزني، ٢٠٠٥م. *شرح المعلقات السبع*. بيروت: دار صادر.

شوندي، حسن. ١٣٨٨ش. *الحركة في الصورة الشعرية*. فصيلة التراث الأدبي. السنة الأولى. العدد الثالث. جامعة آزاد الإسلامية جيرفت. ١٣٧-١٤٩.

شيخو، الأب. ١٩٩٧م. *المجاني الحديثة*. بيروت: دار المشرق.

طبرسي، فضل بن حسن. ١٣٨٤ش. *مجمع البيان في تفسير القرآن والفرقان*. إيران: دار الأسوة للطباعة والنشر.

متحن، مهدي. ١٣٨٨ش. *الأدب الجاهلي بين البيئتين الطبيعية والاجتماعية*. فصيلة التراث الأدبي. السنة الأولى. العدد الثالث. جامعة آزاد الإسلامية جيرفت. ٢٠٧-٢١٦.

محمود خليل، إبراهيم. ٢٠٠٧م. *النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك*. بيروت: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

محمود خليل، أحمد. ١٩٩٦م. *في النقد الجمالي رؤيته في الشعر الجاهلي*. بيروت: دارالفكر المعاصر.

مرهون الصفار، ابتسام. ٢٠١٠م. *جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم*. أردن: عالم الكتب الحديث.

AlQuran alkarim

Aljabori,Yahya, 2007:pre Islamic poem, Features and Techniques, Beyroot, al resalah establishment.,ed.ninth

Al zozani, 2005, Explanation of seven moallaghat, Beyroot, Dar alsadr

Sheikhoo, alab, 1997, Almajani-al hadisah, Beyroot, dar almashregh, ed.forth

Tabarsi, fazl-inb hasan, 2005, majmaoal bayan, in quran interpretation, iran, dar-alosveh for printing and publication.

Mahmoud khalih, ibraham, 2007, new literary critieism from emitation untill separation, beyrot, dar al-masirah for publieation and distribution and printing. ed, second.

Mahmoud Khalil, ahmad, 1996: In aestheticf criticism looking at pre-islamic poem. beyroot, dar Al-fekr al-moaser.

Marhoon Al-safar, ebtesam, 2010, beaty of colour structure in Al-quran, Al-karim, ordon, the new world of the books.

Journal lists

Shavandi, hasan, 2009, article"dy namism in the poetic image", Quarterly culture literary. vol.1No.3 summer 2009, first year. Islamic azad university, jiroft branch, (137-149)

Momtahen, Mehdi, 2009, literature of darkness era and natural and social invitonment Quarterly culture literary.vol.1No.3 summer 2009, first year Islamic azad university, jiroft branch, (201-216)

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی